الكذب والنسيان

كما يراهما « أبو العلاء المعري »

للأستاذ كامل كيلاني

— ٢ —

١ — قصر الكنية

ثم راح يعاتبه على قصر كنيته ، بعد أن امتدحه في رسالته بأنه قد برأ نظمه من الضرورات التي يضطر إليها غيره من الشعراء ، فقال بعد بيان ممتع : فمن هجر هذه الضرورات وغيرها لو ذكرته لطال به الكتاب ، كالتقديم والتأخير ، والفرق بين المضاف والمضاف إليه .. فكيف استجاز أن يقصر كنية صديقه . أما السمة (أي: الإسم) فغيرها ، وأما الكنية فقصرها. فإنا لله وإنا إليه راجعون . هذا أمر من الله ، ليس من ضعف الشاعر ولا وهن القائل ، ولكنه من سوء الحظ لمن خوطب ، واتفاق الردىء لمن سُمّي وذكر .

١ — ضرورات الشعر

ثم قال وأبدع : ولا يقل سيدي الشيخ — أدام الله عزه — قصرت الشعراء ، قديمها ومولّدها ، وأولها السالف وآخرها ، صحيحها الطبيعي[1] ومتكلّفها .

فإنه لو كان استعمل ضرورة غير تلك لقبلت حجته . ولكنه ترك الضرورات بأسرها ، ورفض العيوب فلم يستعملها . وإنما قصرت من ذلك لأني قصير الهمة ، قصير اليد ، مقصور النظر ، (أي : مكفوف) مقصور في البيت (أي : لازم له) محبوس فيه . فكفاني ذلك مع قصر الجسم حتى يضاف إليه قصر الإسم . فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

١ — سبب النسيان

وما زال المعري ينتقل في هذه الرسالة من طرفة إلى طرفة ، من دليل إلى دليل ، وهو يدش في أثناء مديحه عتابه ، ويمزج

(١) هذه الكلمة نص عبارتي يقطع بأني كلمة طبيعي هي الصواب لا طبعي .

شهد الكلام وصابه ، حتى كشف لنا عن سر ذهول صاحبه عن اسمه . فقال : وفي كتابه — أدام الله عزه — شكوى رعشة ، وما أعرف سبباً يؤدي إلى ذلك إلا أن يكون الافراط في درس العلم ، فقد قال الشاعر :

أرعشتني الخمر من إدمانها ... ولقد أُرعِشْتُ من غير كبر

والعجيب أن المعري كان لا يخشى من مصائب الدهر إلا أن تسلمه الشيخوخة إلى الذهول والنسيان وتفضي به إلى الهتر والخبال ، فقال في لزومياته :

وما أتوقى والخطوب كثيرة ... يد الدهر إلا أن يَحُل بي الهُتْرُ

والهتر — وقاكم الله ووقانا شره — هو ذهاب العقل من كبر ، أو مرض ، أو حزن . ولقد ظل شيخنا محتفظاً بيقظة ذهنه ورجاحة عقله حتى لحن ذات يوم ، فتنبأله بعض خاصته بدنو أجله ، وصح ظنه فمات بعد أيام قلائل .

أما النسيان فيعلله المعري في رسالة الغفران أبرع تعليل في حوار ابن القارح والجني أبي هدرش . يقول ابن القارح : « أيها الشيخ ، لقد بقي عليك حفظك » فيقول الجني : « لسنا مثلكم يا بني آدم يغلب علينا النسيان والرطوبة ، لأنكم خلقتم من حمإ مسنون ، وخلقنا من مارج من نار » .

١٣ — طول الأمد

وإذا علل أحد الشعراء نسيانه بفرط الحب ، فقال :

« وحبك قد أنساني الشيء في يدي ... وأذهلني عن كل أمر أحاوله »

فإن المعري يرى أن طول الأمد كفيل بنسيان كل شيء ، فيقول في لزومياته :

« كل ذِكرٍ من بعده نسيانُ ... وتمرُّ الدهور والأزمانُ »

ويقول :

سيُنسَى كل ما الأقوام فيه ... ويختلط الشآمي باليماني

ويقول :

وسوف ننسى فننسى عند عارفنا ... ومالنا في أقاصي الوهم أشباحُ

ويقول :

سيسأل ناس ما قريش ومكة ... كما قال ناس ماجديس وماطسم

أرى الدهر يفني النفس بفنائه ... ويمضي فما يبقى الحديث ولا الرسمُ

١٤ — الهول والفزع

والمعرى يرى أن الهول والفزع ينسيان أذكر الناس وأذكاهم ، فنرى فى غفرانه صاحبه ابن القارح يسأل الخليل بن أحمد فى الجنة عن أبيات ينسبها الرواة إليه فيقول الخليل :

« لا أذكر شيئاً من ذلك ، ويجوز أن يكون ماقيل حقاً »

فيقول ابن القارح : « أنسيت يا أبا عبد الرحمن وأنت أذكى العرب فى عصرك ؟ » فيقول الخليل : « إن عبور الصراط ينفض الخلد مما استودع » .

ونرى أبا العلاء يتخيل صاحبه ابن القارح وهو يسأل « تميم ابن أُبَىَ » عن معنى كلمة المرانة التى وردت فى قوله :

« يا دار سلمى خلاءً لا أُكلِّفها
إلا المرَانةَ حتى تسأم الدّيَنا »

فيقول تميم : « ما أردت بالمرانة فقد قيل إنك أردت اسم امرأة وقيل هى اسم أمة ، وقيل العادة » فيقول تميم : « والله ما دخلت من باب الفردوس ومى كلمة من الشعر أو الرجز . وذلك أننى حوسبت حسابا شديداً ، وقيل لى كنت فيمن قاتل « على بن أبى طالب » وانبرى إلى النجاشى الحارثى ، فما أفلتُّ من اللهب حتى سَفعتنى سفعات . وإن حفظك ابُنَى عليك . كأنك لم تشهد أهوال الحساب الخ .

١٥ — هول الموت

أما هول الموت فينسى كل شىء ويذهل الشجاع عن كل شىء . قال المعرى :

والموت ينسى كَمِىَّ الحرب صارمه
ودرْعهُ وفتـــاة الحى يجْـولها

وقال :

وأظننى أن لست أذكر بعده ما كان من يُسر ومن إملاق

١٦ — نشوة الخمر

وقد رأينا — فيما سبق — كيف رأى فى الخمر مذهلا له عن كُرْبته ، منسياً لغربته ، فتمنى أن تصبح حلالا لتذهله عن همومه وأحزانه ، فلا يفوتنا أن نذكر قوله فى لزومياته :

« أيأتى نبى يجعل الخمر طلْقة فتحمل ثقلا من هموى وأحزانى
وهيهات لو حللت لما كنت شاربا مخففة فى الحكم كفّة ميزانى »

١٧ — شعر آدم

والمعرى يقول فى لزومياته فى معرض الإشارة إلى نسيان الشيخ آدم أبى الخليقة :

احتج فى النى بالنسيان والدهم
وقد غووا بادكار ، لا أقول : نَسُوا

ويقول فى غفرانه ، متخيلا صاحبه ابن القارح وقد عمد لحله فى الجنان ، فيلقى آدم عليه السلام ، فى الطريق ، فيقول : يا أبانا صلى الله عليك ، قد رُوى لنا عنك شعر ، منه قولك :

نحن بنو الأرض وسكانها منها خلقنا وإليهـــا نعود
والسعد لا يبقى لأصحابه والنحس تمحوه ليالى السعود »

فيقول : « إن هذا القول حق . وما نطقه إلا بعض الحكماء . ولكنى لم أسمع به إلا الساعة .

فيقول : « فلعلك يا أبانا قلته ثم نسيت فقد علمت أن النسيان متسرع إليك . وحسبك شهيداً على ذلك الآية المتلوة فى قرآن محمد (ص) : « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما » وقد زعم بعض العلماء أنك سميت إنسانا لنسيانك ، واحتج على ذلك بقولهم فى التصغير : « أُنَيْسيان » وفى الجمع أناسى . وقد روى أن الإنسان من النسيان ، عن ابن عباس . وقال الطائى :

لا تنسَيَن تلك العهود ، وإنما سميت إنســـانا لأنك ناسى

فيقول آدم (ص) أبيتم إلا عقوقا وأذية : إنما كنت أتكلم العربية وأنا فى الجنة . فلما هبطت الأرض نقل لسانى إلى السريانية فلم أنطق بغيرها إلى أن هلكت . فلما ردنى الله سبحانه وتعالى إلى الجنة عادت على العربية . فأى حين نظمت هذا الشعر . فى العاجلة أم الآجلة . والذى قال ذلك يجب أن يكون قاله وهو فى الدار الماكرة . ألا ترى قوله : « منها خلقنا وإليها نعود » فكيف أقول هذا القول ولسانى سريانى . وأما الجنة قبل أن أخرج منها فلم أكن أدرى بالموت فيها ، وأنه مما حكم على العباد . وأما بعد رجوعى إليها فلا معنى لقولى : « وإليها نعود » لأنه كذب لا محالة . ونحن معاشر أهل الجنة خالدون مخلدون . فيقول : « إن بعض أهل السير يزعم أن هذا الشعر وجده يعرب فى متقدم الصحف السريانية ، فنقله إلى لسانه . وهذا لا يمنع أن يكون . وكذلك يروون لك — صلى الله عليك — لما قتل قابيل هابيل :